



من غير عنوان

للقصصى الروسى تشيكوف

كانت الشمس فى القرون الخامس عشر تشرق كل صباح وتغرب كل مساء كما هى اليوم . وحينما تقبل أشعتها الاولى ندى الارض تنفض هذه عنها غبار الكرى ، وتشيع فى الدنيا البهجة وتحلوا الامانى ! وتعود الارض فى المساء الى سكوتها ثم تغوص فى غياهب الليل . وقد ترى احيانا سحابة راعدة تلوح ، ويقصف الرعد وهو يزجر ، أو تهوى نجمة من شاطئ وحى وسنانه ، أو يقبل رهاب حيث الخطى شاحب اللون ليخبر رفاقه بانهم رأوا قريبا من الدير . كان هذا كل شئ ، ثم تعود ثانية الايام تشابه الايام ، والليالى تحاكي الليالى .

كان الرهبان يصلون ويعملون : أما رئيس الدير فيعزف على الأرغن ، ويقرض الشعر اللاتينى ، ويؤلف النغم الموسيقى . وكان للكهل الحلو الوديع ذكاه نادر وسجاياء حميدة . فهو يعزف على الأرغن ببراعة ، حتى أن معظم الرهبان القدماء الذين يضعف سمعهم كلما قربت نهاية حياتهم ما كانوا يستطيعون أن يحبسوا دموعهم كلما هف صوت أرغته من صومعته . وعند ما يتكلم ولو عن الشئون العامة كالشجر والوحوش الضارية والبحر الخضم ، لا يسمعه انسان دون ان ترى دموعه تفرق فى عينيه ، أو بسمه ترتسم على شفتيه ، فيخيل اليك ان الانغام التى تجاور فى الأرغن هى بعينها التى تلتجج فى نفسه . وحينما يهيج غيظ متمكن ، أو يأسره فرح شديد ، أو يتحدث عن اشياء مروعة تأخذها نشوة قوية ، ويتسائل الدمع من عينه اللامعة ، وتضرج وجهه الخمر ، ويدوى صوته كالرعد . هنا يحس الرهبان المستمعون ان ارواحهم تذيبها عظمتها وانها تقضى فيه . لقد كانت قوته فى هذه الدقائق العظيمة العجيبة لا تحد ، فلو امر شيوخ الدير ان يقدفوا بانفسهم فى البحر لاستبقوا اليه مسرعين .

كان موسيقاه وصوته وشعره الذى يمدح به الله منبعاً لسرور الرهبان لا ينضب . فى مدة حياتهم الرتيبة تقلب الاشجار والازهار والربيع والخريف الى اشياء مملّة ، ثم يقلقهم هدير اليم الزاخر ، ويصبح صدور الطير ملول النغم مرذول الجرس . ولكن سجاياء رئيسهم كانت لهم بمثابة القوت المحي والقوة المجددة . كرت السنون وما زالت الايام تشابه الايام ، والليالى تحاكي الليالى وما دنا من الدير أحد اللهم الا ضواري الوحش وجوارح الطير . وكانت اقرب المساكن الانسانية بعيدة جداً . ولا تصل اليها من الدير أو تصل الى الدير منها حتى تعبر صحراء ذرعا مائة ميل .

والذين يحرقون على القيام بهذا هم أولئك الذين لا يعملون للحياة قيمة ولا يقيمون لها وزناً ، والذين نبذوها وراءهم ظهرياً ونفضوا أيديهم منها جلة . يولون وجوههم شطر الدير وكائنهم يسرون الى القبر .

ولشد ما كانت دهشة الرهبان عند ما قرع بابهم فى ليلة من الليالى رجل برهن لهم على أنه من سكان المدينة : وكان هذا الرجل أكثر الناس ارتكاباً للآثام وجا للحياة . وقبل ان يصل او يرجو رئيس الدير ان يباركه طلب طعاماً ونبيذاً .

فلما سألوه عن سبب قدومه من المدينة الى الصحراء قص عليهم قصة صيد طويلة : خرج يطلب الصيد ومعه شراب كثير فضل الطريق ، وعند ما اشاروا اليه أن من الواجب عليه ان يمسي راهبا اجابهم فى ابتسام :

« لست لكم بصاحب ! »

شرب واكل ملء بطنه ، ثم رفع بصره الى الرهبان الذين يقومون بخدمته وهز رأسه لاثماً وقال :

« انكم معشر الرهبان لا تعملون شيئاً ، كل ما تفنون به هو طعامكم وشرابكم ، هل هذه هى الطريقة لخلاص ارواحكم ؟ فكروا الآن ايها انتم تعيشون فى هدوء هنا ، تأكلون وتشربون وتعملون

بالخيرات والبركات اذا باخوانكم هناك قد كُتِبَ عليهم عذاب
الجميع ، انظروا ما الذى يحدث فى المدينة اينما بعض الناس يموتون
جوعا ، اذا بالآخرين لا يعرفون أين يذرون الذهب ، ينغمسون
فى الدعارة ويهلكون فيها كما يهلك الذباب فى العسل ، ثم لاصدق
ولا اخلاص بين الناس . من الذى يجب عليه انتشالهم عما هم فيه ؟
أنا الذى أروح صريع الكأس من الصباح الى المساء ؟ هل
أنعم الله عليكم بالاخلاص ، ومن عليكم بالحب ، وجاكم بالقلوب
الرحيمة ، لتجلسوا هنا بين هذه الجدران الاربع ولا تعملون شيئا ؟
ومع أن كلام الرجل الكبير كان ينطوى على الجرأة والذعة
قد أثر تأثيراً غريباً فى رئيس الدير فظنوه والرهبان
بعضهم الى بعض ثم قال رئيسهم بوجه شاحب ، اخوافي
انه حق . فصحيح ان الحماقة والضعف البشرى جرفا الانسانية
التيبة فى تيار الجحود والاثم فاهلكها وقضيا عليها . وهانحن اولاء
لانريم من هذا المكان كإن لا عمل لنا ولا واجب علينا . لماذا
لا أذهب اليهم فاذا كرمهم بالمسيح الذى نسوده ؟ .

نالت كلمات رجل المدينة من نفس رئيس الدير ، فى اليوم التالى
أسك بعكازه وودع اخوانه ، وركب الطريق الى المدينة ، فامسى
الرهبان لا ينعمون بموسيقاه ولا يحلو حديثه ولا برايع قريضه .
ترقبوه شهرا ثم شهرين فما عاد ، وأخيرا فى نهاية الشهر الثالث
سمعوا نقر عصاه المألوف فتخف الرهبان للملاقاة وأمطروه
بالاسئلة ، ولكنه بدلا من مشاركتهم فى جوارهم بكى بكاء مرا
وما نبس ببنت شفة . رأى الرهبان انه اصبح نحىلا وان اعراض
الكبير قد بدت على ملامح وجهه

فما تمالك الرهبان وقد رأوا منه ذلك ان اجشوا بالكاء
وسألوه عما يبكيه ، فاجابهم بكلمة وغادروهم موصدا عليه
بابه ومكث فى صومعته . لبث فيها خمسة ايام ماشرب فيها
شرابا ولا طعم طعاما ولا عزف على الآوغن . ولما طرق الرهبان
عليه بابه والحوا عليه فى الخروج ليشاركوه فى اساء كان جوابه
الصمت العميق .

خرج من معتكفه أخيرا وجمع حوله الرهبان وأخذ يقص عليهم
ماحدث له خلال الشهور الثلاثة التى خلته ، والدمع ينضح وجهه
والالم يأكل قلبه ، ثم هدأت نفسه وتهدأت أساريره حينما أخذ
يصف لهم وحلته من الدير الى المدينة . غنى الطير وخر
الجنود على جوانب الطريق ، وجاش صدوه بالأمانى الحلوة

والآمال . المسولة . شعر بأنه جندى يتعب لاقحام الموقعة
والوصول الى النصر المحقق . سار حالما يقرض القصيد ويصوغ
الشيد ، وسرعان ما وجد نفسه فى نهاية الرحلة . على ان
عيونه أرمضت باللهب ، ونفسه جاشت بالغضب ووصوته ارتعش
عندما بدأ يتحدث عن المدينة والانسانية . ما كان رأى ولا تحيل قبل
اليوم كل الذى رآه وأحساه وهو فى قلب المدينة . رأى وفهم لأول
مرة فى حياته سلطات ابليس وسيادة الجور وضعف
القلب الانسانى الخاوى . هنا خمسون أو ستون رجلا جيوبهم مفرقة
بالمال يقصفون ويشربون النبيذ دون حد . أخذوا وقد تملكهم
نشوة الراح يرفعون عقائرهم بالغناء الساقت ، وينهون فى شجاعة
باشياء جارحة لا يجرؤ انسان يخاف الله جل سلطانه ان
يشير اليها . فهم احرار سعداء شجعان لا يخافون الله ولا يخشون
الجميع ولا يهابون الموت . يقولون ويفعلون ما يشاءون ، ويذهبون
الى حيث تسوقهم رغبتهم الجامحة .

اما النبيذ فصاف صفاء الكرمات ! وهو ايضا ذكى الرائحة
لذيذ الطعم ، لأن كل من يعب منه يطفح وجهه بالبشر ويرغب فى
الشراب ثانية . وهو يجزى على اقسام باقسام ، ويتهلل غبطة كأنه
يعرف أى ضلال جهنى يختبئ تحت حلاوته .

على مرجل غضبه وبكى . أحر البكاء واشجاء . ثم استطرد
يقص عليهم ما رأى : « وقتت امرأة نصف عارية على منضدة
وسط القاصفين ، ويصعب عليكم ان تصوروا شيئا أكثر
فتنة وسحرا منها ، صبي ناضر زاهر ، وشعر طويل جمل ، وعيون سوداء
لامعة ، وشفاه مكتنزة حمرة ، ثم سفاهة وجرأة وقحة .
هذه البهيمية تبسم فتفترعن اسنان يضاء كالبرد كأنها تقول : وانظروا
انى جميلة ! مستهتره وتسدل من عاتقها الملابس الحريرة
البدية المشجرة . على ان جالها لاتحبه ملابس ، لأنه بشره يفسح
لنفسه الطريق بين طيات ثوبها كأنه الأعشاب الصغيرة وهى
تشق لنفسها الطريق فى الارض زمن الربيع . وتشرب المرأة التى
لا تستحي النبيذ ، وتغنى الأغاني ، ثم تستلم بعد ذلك للمعريدين
لوح الرجل الكهل بذراعيه حانقا ثم استمر يصف لهم سباق الخيل ،
وصراع الثيران ، والملاعب ، وحواريت الفنانين حيث يعرض هيكل
المرأة العارية مرسوما بالزيت أو منحوتا من الصلصال

كان الرجل فى حديثه لسناء ملهما جهورى الصوت حلوا الجرس
كأنه يعزف على آلة موسيقية لاتقع عليها العين . والرهبان